الزرقاوي.. الجيل الثاني للقاعدة (14):

فكر القاعدة جاء نتاجاً لتطور الفكر الجهادي الذي فرض نفسه في منتصف القرن العشرين

تنظيم بن لادن وضع خطة عملية مقسمة إلى سبع مراحل.. مدتها عشرون عاما بدأت عام 2000

فؤاد حسين*

■ الشخصية التي يتناولها هذا الكتاب فرضت أنماطا مختلفة من صنوف التصنيف، تارة أسلوب البحث العلمي المعتمد على القراءة والبحث والتمحيص والتلخيص، وقد أخذ هذا الأسلوب نصيبه في فصول هذا الكتاب، وتارة أخرى الاستماع إلى شهادات العشرات ممن عرفوا الزرقاوي أو رافقوه في مختلف محطات حياته، وهذا أخذ وقتاً طويلا بين تدوين تلك الشهادات، ومن ثم تدقيقها، وتمحيصها، ومقارنة الشهادات بعضها ببعض، للوقوف على المعلومة الدقيقة لاستخدامها بعد التحقق من صحتها، وطرح المعلومة الضعيفة واستبعادها، ما لم نستطع التثبت منها، وتارة أخرى الطلب من أشخاص بعينهم أن يكتبوا بأنفسهم إجاباتهم على أسئلة طرحناها عليهم، لكن الشاق في هذا الجانب كان الوصول إلى هؤلاء الأشخاص ممن لهم بصمات واضحة، سواء في تشكيل فكر الزرقاوي أو تشكيل منهجه واستراتيجيته، وكانت هذه المرحلة الأصعب من الكتاب، إذ باتت إمكانية الاتصال مع هؤلاء صعبة للغاية، إن لم تكن شبه مستحيلة، بعد الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، فغالبيتهم إما في السجون أو مطاردون أو مختفون، لكن دون تدوين شهاداتهم، لن يكون للكتاب إضافة معتبرة، فآثرنا تأخير الكتاب شهورا عدة إلى أن وصلنا إلى مبتغانا، وضمنا الكتاب ثلاث شهادات تغطي مراحل تطور مسيرة الزرقاوي.

الشهادة الأولى كانت لأبي المنتصر بالله محمد، وهو الشخص الأول الذي بدأ الزرقاوي معه بناء التنظيم الأول الذي أسسه أبو مصعب عام 1993، وهو تنظيم التوحيد، الذي عُرف لاحقا باسم (بيعة الأمام)، مسجلا بالتواريخ والأسماء والأحداث كل ما تم حتى عام 1999. فآثرنا تلخيص هذه الشهادة دون التدخل في مضمونها، ذلك أن الكثير مما ذكره لم يعد سرا يحمل صفة الجدة، إن لم أقل أنه سبق أن نشر مضمونه بعموميته، لذلك أبقينا على المعلومات التي طرحت للمرة الأولى، وعلى الانطباع الشخصي لصاحب الشهادة وموقفه من تلك الأحداث التي دونها.

الشهادة الثانية كانت للأب الروحي للزرقاوي عصام البرقاوي (أبو محمد المقدسي) الذي التقاه في الباكستان عام 1989، واتفق معه هناك على تشكيل تنظيم ديني في الأردن، وبقي معه في السجن، بادئا معه كرفيق درب وصديق، ثم شيخه الذي ينظر لفكرة التنظيم ويضع أدبياتها، ثم كتابع له بعد أن أصبح الزرقاوي أميرا للمجموعة داخل السجن، ثم منتقداله وناصحا عن بعد، هو في سجنه بالأردن والزرقاوي في العراق.

الشهادة الثالثة، وهي الأهم كانت للرجل الثالث في القاعدة محمد مكاوي (سيف العدل) الذي يلقي من خلال شهادته الضوء على القدوم الثاني للزرقاوي إلى أفغانستان عام 1999، وأسباب الخلاف بين الزرقاوي وبن لادن، وكيف تم إنشاء معسكر خاص للزرقاوي في هيرات، مبينا طبيعة العلاقة التي كانت قائمة في تلك الفترة بين قيادة القاعدة والزرقاوي، وصولا إلى ضربة الحادي عشر من ايلول (سبتمبر)، وأهداف القاعدة من وراء هذه الضربة، موضحا كم تحقق من تلك الأهداف، مرورا باحتلال أفغانستان والخروج إلى باكستان وإيران، كاشفا طبيعة الدور الذي لعبته طهران حينذاك، وبعد ذلك قرار إدخال الزرقاوي إلى العراق والتحضيرات التي سبقت ذلك. وفي محاولة لاستشراف مستقبل القاعدة في العراق من خلال تطور تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين تتبع الكتاب محطات تطور عمل، وشخصية الزرقاوي، خلال السنوات الثلاث الأخيرة. معتمدين معلومات دقيقة تطلب الوصول إليها استقصاء دقيقا وحثيثا، لكل من كان على تماس مع الزرقاوي خلال تلك السنين.

وللوقوف على مستقبل الحرب المفتوحة بين القاعدة، وواشنطن التي تطلق على حربها تلك مصطلح محاربة الإرهاب الدولي، حاورنا العديد من منظري القاعدة سواء ممن ساهموا في صنع استراتيجياتها في وقت سابق أو من باتوا من صناع قراراتها لاحقا، واستمعنا إلى كل ما يجول بخاطرهم، لنرسم للقراء استراتيجية القاعدة حتى عام 2020، والوسائل التي أتبعوها، والخطط التي وضعوها للوصول إلى تحقيق هذه الاستراتيجية.

الافغان العرب عددهم ومصيرهم

تجمع المصادر الغربية على أن عدد المشاركين في الجهاد الأفغاني ممن وصلوا إلى الباكستان بلغ حوالي 80 ألف رجل، جاءوا من كل أنحاء العالم.

في حين أن أبو مصعب السوري (مصطفى بن عبد القادر نصار) المعروف باسم (عمر عبد الحكيم) يقول في كتابه (دعوة المقاومة الإسلامية العالمية) «أما الأشد أسفا من ذلك فهو أن تقوم دار الإسلام في أفغانستان أيام طالبان، وتفتح على مصراعيها لمدة ست سنوات، وتنشأ فيها المعسكرات وخطوط القتال، وتفتح فرصة الجهاد تحت رايات الشريعة، ولم يزيد عدد من دخلها للهجرة والجهاد على 1500 مجاهد، منهم نحو 300 مجاهد بأسرهم.. أي نسبة واحد في المليون من الأمة!! ولم تستفيد من فرصة الإعداد والتدريب وحضور ميدان الجهاد إلا أعداد محدودة منهم ممن أنعم الله عليهم! بل الأنكى من ذلك، أنه لم يهاجر إليها عالم واحد من علماء المسلمين ولاسيما مشاهيرهم، ولا من رموز الدعوة الذين ملأوا الدنيا زعيقا فارغا عن الهجرة والجهاد.

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار عدد الذين نفروا للجهاد لغوث إخوانهم الذين وقعوا تحت بطش الاحتلال الصارخ في أفغانستان سابقا أيام الروس، أوفي البوسنة أو الشيشان أو فلسطين أو غيرها من بلاد المسلمين التي تعرضت للاحتلال المعاصر.. نجد أن النسبة تبقى في خانة الآحاد للمليون، رغم ما طبل الاعلام وزمر من أجل تضخيم ظاهرة الجهاد المسلح أو ما يسمونه بـ(الإرهاب) من أجل تبرير أهدافهم العدوانية.. ودع عنك الأرقام الخيالية التي نشرتها استخبارات أمريكا عبر وسائل اعلامها من أرقام ادخلتها تحت مسمى القاعدة من أجل تحقيق أهدافها. وأنا أؤكد ما ذكرته من أرقام وبصفتي أحد الذين خبروا هذه المرحلة ميدانيا والحمد لله».

كان من بين ممن وصلوا للمشاركين في الجهاد الأفغاني، الطبيب والمهندس والعسكري والإعلامي، أعمار مختلفة وثقافات متعددة وخبرات واسعة في كل مناحي الحياة ومجالاتها، توفر لهؤلاء المجاهدين الوقت الكافي لتعلم العلوم الشرعية على أيدي علماء عاملين مخلصين، وخاضوا حرباً أدركوا من خلالها أن الأمة في حال ما رجعت إلى الإسلام ووقفت على أرضيته في مواجهة التحديات المفروضة عليها، فإنها ستكون قادرة على رد كل معتد.

استطاع هؤلاء الشباب أن يكتسبوا خبرات قتالية وفنية عملية اكسبتهم ثقة عالية بأنفسهم. وجاء الإنتصار الكبير الذي استطاعوا أن يحققوه على السوفييت، ليرفع من معنوياتهم ويعطيهم الأمل بأن كل الأماني والطموحات المرجوة يمكن أن تتحقق، فليس من السهل أن تستطيع هزيمة دولة مثل الاتحاد السوفييتي السابق، ولا تكتسب ثقة عالية بالنفس.

لكن شاءت الأقدار أن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فدب الخلاف والاختلاف بين فصائل المجاهدين الأفغان، مما أدى إلى تنافرهم ووقوع الفتنة فيما بينهم. المجاهدون العرب آثروا أن لا ينخرطوا في هذه الفتنة، الكثير منهم عاد إلى بلده الأصلي، واختار البعض منهم الذهاب إلى ساحات جهاد ساخنة، والبعض الآخر اختار الذهاب إلى دول لم تكن فيها سيطرة حكومية عالية، فرأينا اليمنيين والأردنيين ممن لم تكن لهم مشاكل مع حكومات بلادهم قد عادوا إلى أوطانهم، أما المصريون والسعوديون والليبيون فقد انتشروا وساحوا في كل بلاد الدنيا.

ساحات الجهاد صنعت من هؤلاء رجالاً واعين مدركين أصحاب طموح وهمم عالية.

الرجال الذين التحقوا بساحات الجهاد الجديدة حققوا نجاحات وانتصارات باهرة، فرأيناهم يحققون انتصاراتٍ في البوسنةً والهرسك، وكان الانتصار الأكبر بهزيمة الأمريكان في الصومال، كذلك حاول هؤلاء الرجال دعم حكومة الترابي في السودان، بيد أن الترابي وجماعته لم يكونوا مستعدين لتحمل أعباء وجود هؤلاء الرجال بين ظهرانيهم، فبدأ الأمريكيون وبعض الحكومات الإقليمية يمارسون ضغوطاً على الحكومة السودانية لدفعها إلى اخراج هؤلاء من السودان، حتى أن الأمريكيين قاموا بضرب مصنع الشفاء للأدوية بدعوى أنه مصنع يعد لتحضير أسلحة كيماوية، رؤية منظري القاعدة كانت تتجه إلى دعم السودان الذي يمتلك مقومات إقتصادية وبشرية مهمة، ليصبح قاعدة نهوض وتقدم عربي واسلامي في المنطقة.

استجابة الحكومة السودانية لم تكن بمستوى طموح القاعدة، فلم تستطع مقاومة الضغوط، فطلبت من هؤلاء الرجال مغادرة أراضيها. وفي المقدمة منهم أسامة بن لادن والحلقة الضيقة المحيطة به. البحث عن منطقة آمنة جديدة لم يطل، فقد كانت حركة طالبان قد بدأت بالتقدم شيئاً فشيئاً في أفغانستان، وكانت هذه الحركة تتألف من طلبة العلوم الشرعية الذين كانوا يدرسون في المدارس الدينية التي كانت منتشرة على الحدود الباكستانية في مناطق تواجد اللاجئين والأفغان، حركة طالبان كانت واضحة منذ البداية، عقيدتها، تصوراتها، وكان لديها مشروع مستقبلي لبناء دولة إسلامية. هذه الأمور شجعت الشباب العرب الذين كانوا قد تركوا أفغانستان بالبدء بالتفكير في العودة إليها.

عودة هؤلاء الشباب أعطى حركة طالبان زخماً جديدا، ومصداقية أكبر على الأرض، وساعدها في تحقيق انتصارات كبيرة فيما بعد، مكنها من إقامة إمارة إسلامية على معظم أراضي أفغانستان.

الافغان العرب وطالبان

تحالف المجاهدين العرب مع طالبان، واسهامهم في الانتصارات الكبيرة التي حققتها طالبان، أعطى المجاهدين العرب فرصة التواجد على أرض وساحة آمنة، مكنتهم من إعادة تجميع صفوفهم وإمكانياتهم وقواهم البشرية من جديد. عاد الآلاف منهم، ووضعوا نصب أعينهم السؤال الكبير: ما العمل لإخراج الأمة من الحال التي وصلت إليها؟

كانوا مدركين أن بداية أي مشروع للعلاج يجب أن تبدأ بالتشخيص السريع، تشخيصهم الأولي أوصلهم إلى أن التدخل الغربي في شؤون العرب والمسلمين، أدى إلى هذه السيطرة على الأمة ومقدراتها، وهذه السيطرة ـ وفق قناعاتهم ـ هي سبب البلاء الرئيس، فهي التي أدت إلى اغتصاب سلطة الأمة ونهب ثرواتها وحجب الحقيقة عن شعوبها؛ جاء الإستعمار الغربي واحتل البلاد وأذل العباد، وهيأ الأمور ورتبها لاتباع اصطنعهم، فقلدهم حكم البلاد ضمن خطط رسمها وأحكم تفاصيلها، فخرجت هذه الأنظمة إلى الواقع المعاش، أنظمة ليست لها علاقة بالأمة الإسلامية، لا من قريب ولا من بعيد، أنظمة لا تطبق الإسلام ولا تعمل به، أنظمة تعادي الإسلام والمسلمين، وتقف على صف أعدائهم ضد قضاياهم، وتساعد أعداء الأمة على نهب ثرواتها وإهدار كرامتها، أنظمة تمارس الظلم الصارخ على أبناء شعوبها، ولا تتيح لهم مجالاً أو سبيلاً إلى التقدم والإزدهار.

إذا كان تشخيص هؤلاء الشباب يوضح ما يلي :

واقع الأمة الإسلامية واقع غير سليم يتعارض مع الشرع ويتعارض مع مبادئ الإنسانية.

قيادة الأمة الإسلامية قيادة غير شرعية، اغتصبت السلطة بالتآمر مع العدو الأجنبي.

ثروات الأمة منهوبة لصالح أعدائها ولصالح المتنفذين من الحكام الفاسقين والفاسدين.

قضايا الأمة النازفة لا تجد من يسعى لحلها وتضميد جراحاتها.

ثمة مؤامرة تسعى لإبقاء الأمة في جو من التخلف العلمي والتقني والإقتصادي، لإبقائها ضعيفة غير قادرة على المواجهة والاستجابة للتحدي المفروض عليها.

الأحزاب والتنظيمات والجماعات المتواجدة على الساحة، والتي طرحت نفسها كأطر للتغيير والتحرير، فشلت في كل شيء ولم تحقق أي تقدم ملموس.

الأعداء زاد تكالبهم وازدادت اطماعهم.

كان هذا هو التشخيص الذي وصل إليه مؤسسو القاعدة.

بعد هذا التشخيص بدأوا بالبحث عن العلاج ...؟

السؤال المنطقي الذي طرحوه، من الذي تسبب بكل هذا للأمة ومن الذي يقف خلف هذه المآسي والمظالم والأحزان؟

الجواب كان عندهم سهلاً: إنه التحالف الصهيوني البروتستانتي الإنكلوسكسوني الذي بدأت ملامحه تلوح في الأفق، مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والذي أصبح جلياً واضحاً للعيان عملياً مع إعلان وزير خارجية بريطانيا الشهير عام 1917، والذي سمي بوعد بلفور، ذلك الوعد الذي نص في حينه على تعاطف الحكومة البريطانية مع إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وما تلا الوعد من اسقاط للخلافة الإسلامية التي كانت متمثلة في الدولة العثمانية عام 1922، واحتلال لأراضيها التي كانت منها فلسطين، واستصدار قرار الانتداب من عصبة الأمم عام 1920، بهدف تهيئة الأمور في فلسطين لإقامة دولة يهودية على أراضيها، وما رافق ذلك زمنياً من قرارات مؤتمر الصلح عام 1919، وقرارات سايكس بيكو التي نصت على تقسيم أملاك دولة الخلافة وتوزيعها على الحلفاء المنتصرين.

كان واضحا لدى مؤسسي القاعدة أن الدعم الأمريكي لليهود، والذي أصبح واضحاً بعد مؤتمر بالتيمور عام 1942، لا يخرج عن إطار التحالف الصهيوني البروتستانتي الإنجلوسكسوني، ذلك أن الطبقة الحاكمة في الولايات المتحدة الأمريكية هي من البروتستانت الأنكلوسكسون، وأن التحالف الصهيوني البروتستانتي يقوم على مفاهيم اعتقادية مشتركة نابعة من فهم محرف للعهد القديم «التوراة»، يتناسب مع مقتضيات الأمور التي تخدم الصهاينة ومصالحهم.

إذا العدو المسبب لمآسي الأمة الإسلامية أصبح واضحاًلدى مؤسسي القاعدة، وتم تحديده بدقة

هذا العدو لا يمكن استمالته فكرياً، وفق قناعاتهم الدينية المستندة إلى القرآن الكريم الذي قال سبحانه وتعالى فيه «ولتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا»، هذا العدو ـ وفق قناعاتهم أيضا ـ لا يمكن دفعه لتغيير مواقفه نتيجة الضغط عليه في حرمانه من امتيازاته ونفوذه في بلاد المسلمين، لان مقدرات الأمور ليست بيد أبناء الأمة وإنما في أيدي أناس من جلدتنا، لكنهم عبارة عن أدوات طيعة في أيدي أعدائنا

إذاً لا بد من امتلاك القوة واعلان الحرب على هذا العدو، والبدء بتوجيه ضربات متوالية له لإجباره على تغيير مواقفه والتراجع عنها. القوة لا بد لها من إطار، فكان الاعلان عن ولادة تنظيم جديد أطلق عليه «الجبهة الإسلامية العالمية لمحاربة اليهود والأمريكان».

هذه التسمية جاءت نتيجة منطقية للتشخيص سالف الذكر للواقع، ومعرفة المتسبب بفساده وخرابه

الخطوات الأولى لهذا التنظيم كانت جمع المعلومات والبيانات عن الأفراد والجماعات الذين يحملون أفكاراً تتطابق أو تتشابه معهم، وبدأ رجوع الشباب المجاهد من جديد إلى أفغانستان، وأعيد افتتاح معسكرات العرب من جديد. لكن أولئك الشباب لم يأتوا هذه المرة ليقيموا إقامة دائمة، وإنما جاءوا ليتم إعدادهم وتجهيزهم بكل ما يلزم، وإعادة نشرهم من جديد في كل أنحاء العالم، فأمريكا واليهود لم يكونوا موجودين بوضوح في أفغانستان، ومن هنا جاءت تسمية القاعدة «قاعدة الجهاد المبارك»، وكنا قد أشرنا إلى أن العرب يطلقون على المكان الذي يتم فيه تدريب المقاتلين والمجاهدين وإعدادهم بما يلزم إسم القاعدة، وكذلك على المكان الذي ينطلقون منه بإتجاه أهدافهم. إذا مرحلة الجهاد الأولى في أفغانستان والتي استمرت من مطلع الثمانينيات وحتى بداية التسعينيات، كانت الحاضنة الأولى التي انتجت فكر القاعدة ورجالاتها.

تطور الفكر الجهادي

فكر القاعدة جاء نتاجاً طبيعياً لتطور الفكر الإسلامي الجهادي الذي بدأ يطرح نفسه في منتصف القرن العشرين تقريباً، والذي استند أساساً على فهم محدد للعقيدة الإسلامية، هذا الفهم يستند أساساً على مفهوم لا إله إلا الله؛ أي أن لا معبود بحق في هذا الكون إلا الله، الله الخالق، الله البارئ، الله الرازق، الله المحيي، الله المميت، الله المعيد، الله مقدر وميسر كل الأمور الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله منهاج حياة يطرح تصوراً شاملاً لحياة الإنسان على هذه البسيطة.

لا إله إلا الله التي تنفي الألوهية عن البشر، وثبتها لله وحده، الألوهية التي من أهم خصائصها الربوبية والحاكمية.

حاكمية الله التي لا تظلم ولا تغفل ولا تماري ولا تحابي أحداً على حساب أحد، الحاكمية التي تنتظم حياة البشرية إلا في ظلها. الحاكمية الآلهية التي تنتج المساواة والعدل والحرية الحقيقية.

العقيدة بهذا الفهم، تعني إذا ترجمناها إلى لغة سياسية، أن هذه الأنظمة والحكومات التي تحكم البشرية الآن، قد اغتصبت أهم خصائص الألوهية، وهي الحاكمية، وأسندتها للبشر. حاكمية البشر ـ وفق فكر القاعدة ـ انتجت كل هذا الظلم الذي يسود عالم البشرية كله، منذ أن انقطع الحكم الإسلامي الذي يسند الحاكمية لله سبحانه وتعالى.

إذاً رجال القاعدة اختاروا مهمة صعبة وهدفاً أصعب ...

هدفهم إعادة البشرية إلى جادة الصواب ـ وفق رؤياهم ـ والذي لن يتم إلا بتحكيم شرع الله، وشرع الله لا يمكن أن يسود ويطبق إلا في ظل دولة إسلامية.

إذا هدف القاعدة الإستراتيجي هو استئناف الحياة الإسلامية من خلال إعادة دولة الإسلام إلى الوجود. وهذا الأمر يوصلنا إلى السؤال الكبير عن استراتيجية القاعدة وخطتها المرسومة للوصول إلى هذا الهدف الرئيسي.

القاعدة والحركات الاسلامية الاخرى

منظرو القاعدة الكبار، أتيحت لهم فرصة الإطلاع على تجربة الحركة الإسلامية الواسعة والممتدة عبر قرنين من الزمن، التي ابتدأت بحركات التصحيح الكبرى التي تمثلت بالحركة الوهابية في نجد والحجاز، الحركة السنوسية في ليبيا، الحركة المهدية في السودان، حركات تجارب الجهاد الإسلامي الحديث التي تصدت لقوى الإستعمار في المغرب العربي وكذلك في مشرقه، وصولاً إلى الحركات الإسلامية المعاصرة، كحركة الأخوان المسلمين وحزب التحرير الإسلامي، وتجربة الجماعة الإسلامية في الهند والباكستان، علاوة على إطلاعهم على تجربة جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده التي تمثلت بفكرة الجماعة الإسلامية، وصولاً إلى تجارب الجهاد الإسلامي وحركات التغيير المنبثقة عنها في مصر وفلسطين وأفغانستان ومناطق أخرى.

هذا الإطلاع لم يكن إطلاعاً أكاديمياً مجرداً، وإنما إطلاع حي ومباشر، فرجالات القاعدة وقادتها ومفكروها ينتمون إلى العديد من الجنسيات والأعراق المختلفة والمتنوعة، فمنهم العربي ومنهم التركي، الأفغاني، الباكستاني، الهندي، والقوقازي. وقد جاءوا من حواضن ومشارب فكرية وحركية متعددة ومتنوعة، فمنهم السلفي، ومنهم من كان ينتمي إلى جماعة الأخوان المسلمين، ومنهم من كان قريباً من فكر حزب التحرير، والبعض منهم كان قد خرج مع جماعة الدعوة والتبليغ. ومن هؤلاء من عاش في الشرق ومنهم من ولد وأقام في الغرب، وهذا التنوع في الجنسيات والمشارب والتجارب أعطى القاعدة، وسيعطيها في المستقبل القريب، قوة متجددة منتجة قادرة على التعايش مع كل الظروف والأحوال.

منظرو القاعدة وصلوا إلى نتيجة مفادها أن الفشل الذي لحق بالحركات الإسلامية المتعددة يعود إلى الأسباب التالية:

اختلاف الحركات الإسلامية في عملية التشخيص السليم لواقع الأمة المعاش، أنتج أخطاء في الحكم عليه، أدت إلى بذل جهود كبيرة لم تؤد إلى نتائج حاسمة.

عدم وجود خطط لدى تلك الحركات، تتحدد في ظلها الأهداف والأدوات والوسائل.

لم تتجرأ الحركات الإسلامية على طرح نفسها كقيادة أصلية للأمة، وبديلة عن تلك القيادات الضعيفة المصطنعة، التي تعمل لغير صالح الأمة.

عدم قدرة الحركات الإسلامية على استغلال طاقات الأمة البشرية والمادية، وانطلاقاً من هذا الفهم فقد طرحت القاعدة تصورا محددا يحدد معالم مسيرتها المستقبلية:

ـ مجاهدو الأمة الذين يدافعون عن أرضها ومقدساتها وحرياتها، هم القادة الشرعيون للأمة الإسلامية، وما دونهم من حكام هذه الدول والأنظمة، ما هم إلا مغتصبون للسلطة، متآمرون مع العدو الأجنبي.

ـ واقع العالم، لا يختلف عن واقع العالم الإسلامي في تعارضه مع الشرع والدين، ولذلك فهو واقع جاهلي، جاهليته نابعة من إسناد البشر للبشر حق التشريع ووضع القوانين وتطبيقها، وهذا ما يتعارض مع توجيهات رب العالمين. إذا هذا الواقع الجاهلي قد أنتج ظلما واعتداء فاضحا، وفسقاً وفساداً طال كل مناحي الحياة الإنسانية، وأنتاج كل هذه المآسي التي أصبحت حياة البشرية معها حياة منحرفة عن الجادة والفطرة السليمة.

ـ لا بد من وجود خطة مرسومة واضحة المعالم والأهداف والمقاصد، محددة الوسائل والأدوات، في إطار مراحل زمنية مدروسة بعناية ودقة، يراعى في ظلها التنظيم، وظروف الأمة الذاتية والموضوعية.

ـ الأصل في التغيير المنشود في واقع البشرية، يجب أن ينطلق من تغيير واقع الإنسان الفكري والنظري والإعتقادي، لكن الأنظمة والقوى الجاهلية المسيطرة على العالم لا تسمح ولن تسمح ـ وفق رؤية القاعدة ـ بأي نشاط فكري هادف، وأنها تقف عقبة كأداء حيال ذلك، ولا بد من إزالتها. وإزالتها لن تتم إلا بالجهاد ـ الذي يفسرونه على أنه بذل النفس والجهد والمال ـ لإزالة كل العقبات والحواجز المادية والطواغيت الأرضية. والجهاد عندهم كفيل بإزالة هذه العقبات، والقوة التي يحتاجها هذا المشروع الجهادي تنمو وتكبر وتتعاظم مع الحركة والعمل المدروس المنظم.

خطة القاعدة

وضعت القاعدة خطة نظرية واقعية قابلة للتطبيق ضمن جدول وبرنامج زمني مدروس ومحكم. هذه الخطة تقوم على تطوير العمل الجهادي الإسلامي كماً ونوعاً، وتوسيع رقعته ليشمل العالم كله. ويرون أن الجهاد سيساهم في تعاظم قوة الأمة التي سترهب بها أعداءها، وتجبرهم في النهاية على رفع اليد عن مقدراتها وثرواتها، لتتراجع في النهاية، مخلية ما بين الأمة وبين سلطتها وسيادتها، وعندما تعود السلطة للأمة، وتصبح السيادة لشرع الله، فإن كل المشاكل الداخلية والخارجية ستحل وتنتهي سريعاً وبشكل طبيعي.

خطة القاعدة العملية مقسمة إلى مراحل مرتبطة بجدول زمني، وهي مقسمة إلى سبع مراحل، مدتها عشرون عاما. بدأت عام 2000 بضربات نيويورك وستنتهي مع عام 2020 . وفق التتابع التالي:

1 ـ مرحلة الإفاقة: يرى منظرو القاعدة، أن الأمة الإسلامية مرت بمرحلة سبات عميق لم يحدث مثله عبر تاريخها الطويل، هذا السبات بدأ مع بداية القرن التاسع عشر، وامتد عبر القرن العشرين. ومن مظاهر هذا السبات ما حل في الأمة من مصائب ونكبات، نتيجة التحدي الذي فرضه أعداؤها عليها دون أن تستجيب الأمة الإستجابة المطلوبة لهذا التحدي، هذا السبات لم تنجح معه وصفات وخطط البعث التي وضعت له سابقا. مما حدا بقادة القاعدة وضع وصفة تقوم على فكرة تسديد ضربة قوية إلى رأس الأفعى الملتوية ليفقدها رشدها، ويدفعها بإتجاه ردود أفعال ارتجالية سريعة غير مدروسة بحق من ضربها، وهذا يتوج من قام بضرب الأفعى لقيادة الأمة الإسلامية. إذا ما وجهت الولايات المتحدة الضربات القوية للأمة الإسلامية، وأعلنت الحرب الصريحة عليها، بدل محاربتها بشكل خفي، فكانت هجمات القاعدة في 11 أيلول/سبتمبر، لإجبار الأميركيين على كشف حقيقة أفعالهم ونواياهم، فكان إعلان بوش الإبن أن حربه صليبية، ودعوته لقيام تحالف دولي لمكافحة الإرهاب والقضاء عليه. فبدأ بغزو أفغانستان ومن ثم العراق. وهذا من وجهة نظر قادة القاعدة نجاح للمرحلة الأولى في خطتهم الهادفة إلى استدراج واشنطن لضرب الأمة الإسلامية لتفيق من نومها وسباتها، ويرى قادة القاعدة أن استجابة الولايات المتحدة لاستفزازها، كان خطأ استراتيجياً ارتكبه التحالف الصهيوني الإنكلوسكسوني بقيادة الأمريكان.

إذاً تحقق هدف القاعدة الأساسي من ضربه 11 أيلول (سبتمبر)، ونجحت الوصفة، وبلع الأمريكيون الطعم.

بدأت هذه المرحلة ـ مرحلة الإفاقة ـ مع بداية الإعداد والتحضير لضربة 11 أيلول (سبتمبر) في بداية سنة 2000 م وانتهت بدخول الأمريكان بغداد 2003/4/9 .

نتيجة المرحلة الأولى ـ وفق تقديرات مفكري القاعدة الاستراتيجيين ـ كانت جيدة جداً، فقد أجبرت الأمريكان على الخروج من قواعدهم التقليدية، مما أدى إلى توسيع ساحة المعركة، وبذلك أصبح الأمريكيون وحلفاؤهم أهدافا قريبة وسهلة، وهذا فتح باب معركة تتواصل فصولها على مدار الساعة. وبدأت مرحلة استنزاف متنامية ومتزايدة لهذه القوة الكبرى.

وتعتقد القاعدة أن النقطة الثانية والمهمة التي حققتها في هذه المرحلة، أن خطابها أصبح مسموعاً ومنتشراً في كل مكان، هذا الأمر حول القاعدة من إطار تنظيمي محدود الإمكانيات والقدرات، إلى تيار واسع الإنتشار متنامي الإمكانيات، تتعاظم قدراته البشرية والمادية يوماً بعد يوم، وكانت كلمة أيمن الظواهري، قبل شهر من هجوم طابا، التي طالب فيها أنصاره ومؤيديه بالبدء بتشكيل أطر قيادية ومراكز سيطرة في كل مكان يتواجدون فيه وكل حسب ظروفه وقدراته، دليلا واضحا على ذلك ـ وفق قناعات قادة القاعدة ـ ويعتقدون أن الأمة الإسلامية وشعوبها بدأت تستيقظ وتفيق من سباتها شيئاً فشيئاً، وبدأ تقف على الحقيقة المرة التي تعيشها.

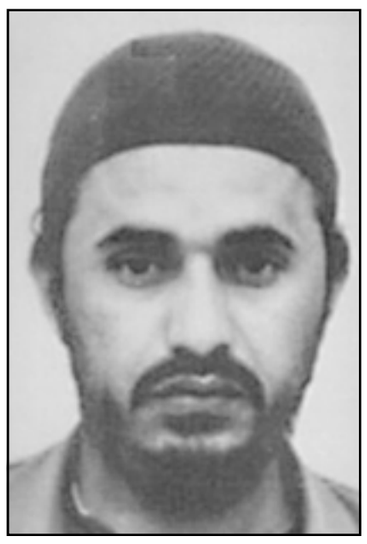

ابو مصعب الزرقاوي

منظرو القاعدة وصلوا إلى نتيجة مفادها أن الفشل الذي لحق بالحركات الإسلامية المتعددة يعود لاختلافها في عملية التشخيص السليم لواقع الأمة المعاش وعدم وجود خطط لدى تلك الحركات، تتحدد في ظلها الأهداف والأدوات والوسائل، ولأن الحركات الإسلامية لم تتجرأ على طرح نفسها كقيادة أصلية للأمة، وبديلة عن تلك القيادات الضعيفة المصطنعة، التي تعمل لغير صالح الأمة....

* كاتب وصحافي من الاردن